

## صورة الأنا والآخر في رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى

أوروبا ١٩٣٧

د. مريم بنت حميد بن صقر الغافرية

### مقدمة:

الرحلة مطية العربي منذ القدم، ووسيلته للهروب من ظروف الحياة القاسية إلى حياة أفضل، أما حديثنا صار السفر الوجه الآخر للرحلة و"لأننا في زمن كثر فيه الأسفار، وتقاربت فيه الأقطار، والمسافرون آلاف مؤلفة، والمرتلون أعداد هائلة، والمغتربون أرقام مذهلة والمهاجرون كثرة كاثرة، حتى أصبح الأصل في الناس السفر"<sup>(١)</sup> المطارات تغص بالمسافرين، والخطوط البرية معمورة بالمهاجرين، والبحار تفيض بالمرتلين، فأصبح لهذه الأمم المسافرة أدب يأنس به المسافر ويسلو به القارئ. وأدب الرحلة مجال رحب، ينطوي على علاقات إنسانية ضاربة في جذور التاريخ السحيق لهذا الكون، وهي محاولات صادقة لحياة الإنسان القديم، وصفحات من جهاده، إذ ينفذ عنه ثياب الدعة ويرتدي ثوب الارتحال والتجوال، ويجمع التليد والطريف مما يقع عليه بصره من مشاهدات ويسجل تراث أمة تشيد به صرح الحضارة. ولكل شعب في الأقطار العربية قصته مع الرحلة وملحمته التي يفخر فيها بسرد الرحلات والأسفار، ولكل رحالة حكايته مع الرحلة، فالرحلة في قيمتها وأهميتها لا تقل أهمية عن غيرها من فنون الأدب المختلفة؛ لذا سيجد الباحث في أدب الرحلة العربية متعتها، وخصائصها، وميزاتها الأدبية عن غيرها عند كل شعب من الأقطار العربية ومن هذه الأقطار العربية عمان، التي لها من التاريخ نصيب وافر وحظ سائر بها نحو الرفعة والتقدم، ومجد غابر خلده التاريخ.

إن عمان بلد كانت الرحلة فيه منطلق البقاء وتكوين الحضارة (٢) والرحلة عند العمانيين وانتقالهم عن وطنهم وبعدهم عنه إلا امتداداً للناس الرُحَّل (٣) والرحلة قديمة قدم الوجود العماني لكنها لم تحظ بالاهتمام من حيث تدوينها ودراستها دراسة تخصصية، فالرحلات العمانية جسم تداعت أشلاؤه بين كتابات الرحالة العمانيين الذين عاشوا في شرقي أفريقيا أو في الوطن الأم عمان، وبين مذكرات الرحالة من العرب أو الغرب الذين زاروا عمان في فترات مختلفة، وقسم منها في مخطوطات لم تجد طريقها للتحقيق بعد. ويركز موضوع الدراسة على الرحلة العمانية إلى أوروبا، يكشف "صورة الأنا والآخر"، متخذاً من رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا ١٩٣٦ أنموذجاً. مستنداً على المنهج الوصفي التحليلي.

### الرحلة وأهميتها:

رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا ١٩٣٦ هي رحلة سجلها كاتب ومرافق السلطان سعيد علي بن جمعة الغيري (٤) في كتابه "رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا (١٩٣٧-١٩٦٠م)"، وكانت عبارة عن مخطوط في وزارة التراث والثقافة العمانية، حققه محمد علي الصليبي، والمخطوط عبارة عن ثلاث رحلات إلى أوروبا، الرحلتان الأولى والثانية رسميتان وهما:

١- رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى بريطانيا لحضور تتويج الملك جورج وذلك في الثاني من إبريل عام ١٩٣٧م.

٢- رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى بريطانيا لحضور تتويج الملكة إليزابيث الثانية وذلك



خليفة بن حارب 1911-1960 م

في الثاني من شهر يونيو عام ١٩٥٢م.

أما الرحلة الثالثة (غير رسمية)، وهي: رحلة السلطان خليفة بن حارب (غير الرسمية إلى لندن) وذلك في الأول من شهر يونيو عام ١٩٦٠.

تشتمل الرحلة على مقدمتين:

الأولى مقدمة محمد علي الصليبي، وتحدث فيها عن الرحلة وأهميتها والأغراض التي كانت تركز لها من العصر الجاهلي وما لها من دور في التجارة وخصُ بالذكر (رحلات الشتاء والصيف) التي كانت من أهم رحلات قريش ففي الصيف رحلة إلى بلاد الشام، وفي الشتاء إلى جنوب الجزيرة العربية (اليمن وما جاورها). أما الثانية فمقدمة المؤلف سعيد بن علي بن جمعة المغيرة.

ويضم محتوى الرحلة وصف ما يتصل بالرحلة ذاتها فقد حدد المؤلف وقت الرحلة بدقة، حيث بدأت عصر يوم ١٩ محرم من يوم الجمعة ١٣٥٩هـ الموافق ٢ إبريل عام ١٩٢٧م، وحدد مكانها (السفر إلى أوروبا). ووصف أيضاً الاستعداد للرحلة ومراسم توديع السلطان خليفة بن حارب في زنجبار وممباسة، وحدد وسيلة السفر: (الباحرة السلطانية آل سعيد)، وأتبع وصفاً متسلسلاً لجميع أحداث الرحلات الثلاث الزمانية والمكانية.



وتتمثل أهمية الرحلة أنها الرحلة الأولى من رحلات السلاطين العمانيين في زنجبار في القرن العشرين، وتأتي في المرتبة الثانية في ترتيب رحلات الحكام والسلاطين العمانيين إلى أوروبا، وتستمد رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا أهميتها من مصدرين رئيسيين:

العصر الذي تمت وكتبت فيه الرحلة، فقد كتبت في عهد السلطان خليفة بن حارب الذي قام بمجموعة من الإصلاحات، منها القومية والعلمية والطبية، فقد أنشأ مخازن لحفظ القرنفل لمن أراد مجاناً، كما قام بتوسيع إدارة العلوم والطب في الأرياف ورصف الطرقات ووحيد جميع الطوائف في زنجبار، وكانت علاقته وثيقة بالعمد البريطاني في زنجبار فقد كانت بينهما زيارات متبادلة في كل اثنين وأربعاء.

إن زمن الرحلة في النصف الأول من القرن العشرين، وهي الرحلة الثانية إلى أوروبا في ترتيب رحلات الحكام والسلاطين، فهذه الرحلة تعد من أهم الرحلات العمانية إلى أوروبا، وهي رحلة لها أهميتها في أدب الرحلات العمانية إذ أن الرحلة

تضم رحلتين مهمتين لمناسبات وطنية في أوروبا (حضور حفل تتويج الملك جورج السادس وحضور تتويج الملكة إليزابيث). وتمثل الرحلة نقلة كبيرة في تطور أدب الرحلات العمانية وخروجها من نطاق الإقليمية التي تنظر للذات في حدودها الإقليمية إلى النظر باتجاه الآخر (الغربي) ورسم صورته في ذهن الرحالة العماني. وقد امتدح الشاعر صالح بن مسلم الخلاسي (٥)، السلطان خليفة بن حارب، وتحدث عن عزمه للسفر إلى لندن قائلاً (٦):

عزم المليك على السفر طلب التمدن والنظر  
سر في أمان الله يا خير الملوك لنا ظهر  
سر باسلام مظفراً والأمن في ظل القدر  
يا لندن تيهي فدا سلطاننا الشم الأبر  
ملك له وصفان حلم ثم بطش مستقر  
ملك له في كفه بحر النداء يهب الدر

ثانيهما: المغيرة كاتب الرحلة الذي عاشها ودونها، فقد اجتمعت في كاتب الرحلة أمور عدة، فهو رجل امتاز بالذكاء وبروح شرقية

صميمة وطبيعة خيرة عمقتها تربيته على يد جده العلامة جمعة المغيري في عمان، وعمه محمد بن جمعة المغيري في الجزيرة الخضراء بزنجبار، كما أن المنصب الذي يشغله في عهد السلطان خليفة بن حارب (عضويته في المجلس التشريعي) وكونه أديباً ومؤرخاً يملك ثقافة واسعة، وهو بلا ريب يملك بعض المصادر التي يلاحق فيها أصول موضوعه؛ وقد ساعد ذلك على منح الرحلة شرعية تاريخية وأدبية في آن واحد.

### العجيب والغريب

يقول مجدي وهبه في كتابه "الأدب المقارن": "وإذا كنا بصدد رحلة في بلد غريب عن وطن قارئها فكيف يتأتى التشويق؟ لا شك أن أهم ما يجذب القارئ هو وصف الغريب من المناظر الطبيعية أو الحضارية وإظهار الصفات البشرية غير المألوفة عند التعرض لعادات الناس وتصرفاتهم..." (٧) وقد أظهر المغيري العديد من الصور التي أثارت دهشته وصور للقارئ الكثير مما رأى من العجيب والغريب ابتداءً من وسيلة السفر "البخارة آل سعيد" التي أثارت دهشته فيقول: "ولعلك أيها القارئ تحب أن تعرف المكان المعد لصاحب العظمة في هذا المركب، وما شاهدته من العجب العجاب في هذا المركب..." (٨) أثارت فخامة المركب المعد لعظمة السلطان دهشته فقد رأى من عجيب المحلات التي هي معدة للأكل والراحة والفرجة والحديث ما بهر بصره ودهش نظره حيث عجز قلمه عن تصوير ما رأى لغرابة ما شاهد، حيث يقول: "فهناك وصف بعض الصفة، وإن لم أكن أعرف الوصف على قدر الصفة، بل هي قطرة من غيث أو غرفة من بحر" (٩). أما العجيب والغريب فيما رأى بعينه، وسمع بأذنه فيسرد على وصفه الذي رأى، وقد يخالطه شيء من الخيال، ومما أدهش كاتب الرحلة، الأنهار التي تتجول في وسط مدينة باريس، وكذلك نظافة الشوارع التي أبهرته ويصور تلك الدهشة بقوله: "وأما شوارع باريس ففي غاية السعة والنظافة، لا ترى عود ثقاب... وأظن أن عاداتهم في كس الشوارع ليلاً..." (١٠)، ومن العجيب الذي شاهده وتيقن منه، أن كل خمس دقائق تعبر ٣٠٠ سيارة في أحد شوارع باريس، ومن شدة إعجابه بمدينة باريس الجميلة العجيبة وصفها بأنها "عروس الدنيا، بل وجه الدنيا، بل عين الدنيا، بل إنسان عينها" (١١)، ومن المشاهد العجيبة التي لفتت انتباه السلطان خليفة بن حارب والمغيري، الخيول الجميلة التي رآها في سباق "هونفا" حيث يقول: "وشاهدنا منظرًا عجيباً، وجياداً من أفضل الجياد وأجملها..." (١٢). وتتوالى صور الغريب في الرحلة، ويصور شدة إعجابه واندهاشه لجمال وروعة آثار مدينة مارسيليا قائلاً: "رأينا ما يشعر منه بدن الناظر من حسن هذه المدينة وجمالها، وعلى قمة هذا الجبل منارة عظيمة على صورة رجل قائم وقيل هذه الصورة مبنية من ذهب خالص ويشاهد لمعان هذا التمثال القادم لمارسيليا من مكان بعيد من جهة البحر، لقوة لمعانه" (١٣). ومما أثار إعجابه في قصر فرساي الواقع غرب باريس بناء هذا القصر وتفصيله الراقية، حيث يقول: "فأندهش قلبي من حسن



هيئة البناء والتفاصيل، وهيئة المكان الذي يجلس فيه الملك وخواصه، وغير ذلك من الرسوم الغربية والعجيبة المطلية بالزنج الذهبي رجالاً ونساء وأطفالاً وعساكر، عليهم اللباس القديم من آلات الحرب والزينة، وكذلك طور المطربين المغنين للملك في أيامه، وصور البنايين الذين بنوا هذا القصر" (١٤).

كما أثار إعجابه جمال مدينة "كان" التي يقول عنها أنها من أحسن وأجمل المدائن التي زارها لكون ساحلها الممتد أميالاً عديدة، والتصور الموجودة على امتداد الساحل، والمستجمين من الرجال والنساء على طول هذا الساحل بالملابس بل ألوف وكذلك مما أعجبها فيها طقسها البديع فيقول "وهذه المدينة بردها أقل عن بقية الأماكن مثل لندن وباريس" (١٥).

أما في مدينة لندن فيحدثنا عن ذلك المحل التجاري العجيب الذي دخله برفقة السلطان خليفة بن حارب قائلاً: "وتجولنا على أشياء غريبة مثمنة،

من كل نوع من الجواهر وآلات الذهب والفضة، والثياب على مختلف ألوانها وأشكالها من سائر الألبسة وغير ذلك مما يحتاجه ابن آدم من حال ولادته إلى وفاته... والحقيقة أن هذا الدكان لا أحد يقدر أن يصف ما فيه من الأشياء الغالية العجيبة" (١٦)، وفي مجال التقدم العلمي وعند زيارته للمطبعة في لندن، فيذكر أن من العجيب الذي رآه آلات الطبع التي ترقص وتخرج أنواعاً من القراطيس المكتوبة في أسرع وقت. ومن أعجب العجائب تلك السفينة التي رآها في مدينة (بارتسموث) التي تبعد عن لندن سبعين ميلاً ويذكر خبر السفينة قائلاً: "وبها السفينة التي قاتل عليها البطل الشجاع نلسون،... وبناء هذه السفينة من أعجب العجائب... (١٧)، ومن العجيب الذي رآه في مقاطعة اسكتلندة روعة التصميم الهندسي حين زار القنطرة التي تعبر الخليج البحري حيث يصور إعجابها قائلاً: "ورأينا من العجب العجيب من الهندسة التي بنيت بها هذه القنطرة التي تعبر الخليج البحري بمسافة غير قليلة..." (١٨) ومن أعجب العجائب التي رآها في جمعية الجنود بلندن أن بعد الطعام يدار على الحاضرين قرح من الفضة به خمر وكل من وصل هذا الكأس عليه أن يقوم واقفاً، والرجل عن يمينه كذلك يقوم واقفاً لقيام الذي بيده الكأس ثم يشرب ثلاث جرعات من ذلك الخمر، والرجل القائم كأنه يحرسه من هجوم العدو (١٩). نقلت عدسة المغيري البصرية وأفكاره الحسية صوراً راقية للعجيب فيما رآه وشاهده في تلك البلدان، حتى إن القارئ ليجد متعة حين يصل لقراءة الجزء الذي يتحدث فيه المغيري عن وصف لندن وباريس، فهو ينقل القارئ إلى عالم الخيال والمتعة وهذا ما يدفع القارئ لمواصلة السير والمضي في عالم الرحلة، يقول أنيس منصور في كتابه "أعجب الرحلات في التاريخ": "أروع الرحلات هي التي تقوم بها في رحلات الآخرين، نرى بعينهم ونسمع بأذانهم، نرتمي في أحضانهم ونمشي على الدنيا معاً" (٢٠).

### - صورة الأنا والآخر:

تمثل كل الثقافات والحضارات الإنسانية المختلفة صورة ما لـ "الآخر"، والآخر هو كل ما ترى "الذات" أنه مخالف لها أو مختلف عنها، وحين نتحدث عن الآخر أي هو ذلك الذي تقضي الذات بمخالفته لها وتحكم باختلافه عنها في نظم الحياة كلها: في العادات والتقاليد، والأذواق، واللسان والدين، متى ما نظر في تلك الصورة التي ترسمها الذات للآخر، فإنه يتبين أن تلك الصور مزيج غريب غير متجانس من العواطف والأحكام: فقد تكون في الوقت ذاته تحمل مشاعر الاستبشاع والاستهجان والاستغراب من جهة، وتطغ بمشاعر الاستحسان والتقدير والتعظيم من جهة أخرى، وقد يكون الآخر مستأنساً متحضراً تستطاب مجالسته وتطلب مشاهدته؛ ولكن الآخر يظل في الأحوال كلها موضع غرابة وموطن دهشة وتعجب (٢١). إن لحظات الاتصال بالآخر، تمثل تصالحوماً أو ارتطاماً من اللحظات المهمة في تاريخ الأمم، فغالباً ما تكون هذه اللحظة مرتكزاً لمشاريع كبرى فكرية أو اقتصادية أو اجتماعية تأتي بخيراتها المأمولة لأمم لم تثل حظها من التمدن أو التقدم... (٢٢).

وفي رحلة السلطان خليفة بن حارب يلحظ القارئ أن هناك شخصيتين اثنتين، الأولى هي شخصية السلطان خليفة بن حارب المدعو الرسمي في الرحلة، والشخصية الثانية هي شخصية كاتب السلطان سعيد بن علي المغيري، فالشخصية الثانية تذوب في الأولى، وتمثلها وتشطق عنها " وهذا في المقام الأول الدور الوظيفي لكاتب السلطان، إذ هو ترجمانه الناطق وبيانه المكتوب" (٢٣) والآراء الواردة في الرحلة لا تمثل كلها انطباعات ومشاهدات السلطان وحده بل إن الكاتب يعبر تارة عن شخصية السلطان وتارة عن انطباعاته وملاحظاته فنشخصية السلطان تحضر في الحفلات والمناسبات والدعوات الرسمية في الرحلة، أما شخصية الكاتب فتضع بصمتها التاريخية الوصفية في كل مكان ينتقل إليه وفي كل معلم سياحي وتبدو ذات المغيري التاريخية واضحة في خط سير الرحلة وضوحاً بارزاً. الذات في هذه الرحلة تتمثل في أبعاد ثلاثة، أنها ذات عمانيّة عربية مسلمة وصفة الإسلام هي الصفة الأم والمحرك لكثير من الصفات فيها، وهي ذات متسامحة في إسلامها تتقبل التعامل مع الآخر النصراني أو المسيحي. والصفة الثانية التي تميز هذه الذات حب الفروسية والجياد الأصيلة. فقد ذكر المغيري في جبهة الأخبار أن السلطان خليفة كان مغرمًا بحب الفروسية وحب الخيل ومن شدة حبه للخيل طلب ثلاثين جوادًا من الجياد الأصيلة التي بالحيشة (٢٤) وفي باريس دعي السلطان لحضور سياق الخيل في هونفا... (٢٥) وإن عربوية السلطان تمتد من كونه حفيداً لسلسلة من عرب عمان (آل سعيد) في زنجبار وأن جده سعيد بن سلطان، و السلطان خليفة بن حارب ولد في عمان بمسقط عام ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٧٩م، إلا أن أسرته رحلت به إلى زنجبار.

### - صورة الأنا والآخر في المرأة الاجتماعية :

يتضح من وصف المغيري للآخر أنه منضبط ودقيق وملتزم في آدابه وأخلاقه وحسن تعامله مع الغريب وقد برزت الأخلاق والآداب والصفات التي يتحلى بها الآخر، فيظهر من حديث الذات في هذه الرحلة أن السلطان وكاتب الرحلة قبولوا بالاحترام والإجلال من قبل ضباط المركب الذي أقلمهم في رحلتهم إلى أوروبا، وكذلك من قبل الرجال والنساء الأوروبيين حيث يقول: "وما أذهب عنا وحشة السفر ولوعة فراق الوطن، الاحترام والإجلال الذي قابلنا به ضباط المركب، وجميع الركاب الأوروبيين من رجال ونساء..." (٢٦) ويصور الآخر في قمة الأدب ومنتهى الذوق في التعامل ومن الأدب والتواضع إذا أراد أحد أن يشتري أو يتكلم مع آخر أن يقول: (يا سيدي) تفضل كذا أو (يا سيدي بكم كذا).

وتصور الذات في هذه الرحلة الآخر الذي يقوم على خدمتها بأنه متمدن نظيف في لباسه وأنيق في شكله "العلمان واقنون بلباسهم النظيف والطريف" (٢٧)، والحديث مع الآخر ومن قبله كان مستأنسا ومستطاباً، ومن ذلك قول المغيري: "فأكثر العبرية يأتون إلينا يتعرفون بعظمة السلطان وأنا، ويشاركونا الحديث والجلوس والانبساط..." (٢٨).

أما الهدوء والسكينة فلها منظر مميز في نظر المغيري حيث بالغ في تصوير الهدوء والسكينة في مدينة لندن وذلك قد يعود لأمرين إعجابه الشديد بالمدينة ولأن كل فرد في حاله فذلك يقلل من الاحتكاك والضوضاء حيث تعيش الحياة الاجتماعية شيئاً من الجمود لا يقدره إلا سكان تلك البلاد أو الغريب الذي عاش دارهم ردحاً من الزمن وألف طباعهم ولم يكن هذا الهدوء مقصوراً على البشر في لندن بل امتد ليشمل الحيوانات "حتى حيوانات لندن تراها طوع الأدب وطوع الأمر" (٢٩) وقد بلور علاقات الآخر الاجتماعية بأنها إيجابية في تعاملها وأخلاقها وهدوئها ونظامها، حيث يصور ذلك قائلاً: "أما الأدميين فلا تسمع بوقوع نزاع أو شتائم بين الناس المشاة كل الناس هدوء ونظام في سيرهم" (٣٠).

وقد نظر للهدوء الذي يعم مدينة لندن بنظرة فاحصة تنبئ عن تفكره وشديد ملاحظاته فقد عبر عن خلاصة انطباعه بوصف هدوء المدينة التي تعبر عن هدوء أهلها ومثل لذلك قائلاً: "لو دخلها أعمى لقال إن هذه المدينة ليس بها من بني آدم أحد لعدم الأصوات الحادة حتى في السوق..." (٣١) وتتضح ملامح الصورة العامة لأدب الآخر وهدوئه في رأي الذات واستحسانها لذلك الأدب وتعظيمها له حيث يعبر المغيري عن ذاته قائلاً "أهل أوروبا في الغاية والنهائية في أدبهم وعاداتهم لا تسمع أصواتاً حامية في الطريق ولا في الأمكنة، ولا في أمكنة جلوسهم، ولا في محلات بيعهم وشرايتهم كما هي العادة في الشرق" (٣٢) ويلحظ القارئ من عبارته تلميحاً لاستهجان واستنكار الذات الضوضاء والضجيج في الشرق وذلك من استحسانه وتركيزه لعادات الآخر الإيجابية في أخلاقه وتعامله وهدوئه ونظامه. ويتضح من حديث الذات عن أخلاق الآخر والإشادة به وبحسن أخلاقه تأثرها الإيجابي نحو تلك الصفات واستحسانها وقبولها "ما رأيت من يشرف في نافذة أو سمعت نزاعاً بين الجيران أو بين العائلة نفسها حتى أنك لا تسمع صوت طفل وكأن الهدوء اختصت به مدينة لندن في جميع حركاتها من بقية المدن".

ولم تنظر الذات فقط لأخلاق الآخر من حيث الهدوء والنظام فقط بل استحسنت أهم صفتين عند القائمين على خدمة السلطان وحاشيته ومن أهمها التواضع والبشاشة وهذا من لوازم الأدب عندهم. ولم تكن الذات بمنأى عن إنسانية الآخر ومروره التي تتمثل في الرفق بالحيوان وحسن العشرة والرفقة معه، وتصور هذه المروءة والإنسانية عند عموم الأوروبيين "أما مروءة الأوروبيين وإنسانيتهم فإنها تتضح في موقفهم من الرفق بالحيوان ومراعاة ضعفه، فقد مررنا على مجموعة كبيرة من الخيول المسنة الكبيرة وسأل (الكاتب) عنها فقيل له إنها مسنة ولا تقدر على الاشتغال؛ ولذا ينفق عليها جزءاً من صحتها المتقدمة، وهذا من حسن جميل الصحبة من أهلها لها "وعداً المغيري ذلك من المروءة ومن الأعمال الخيرية" (٣٣).

### - الذات المغتربة في مرآة الآخر :

لباس السلطان العربي وحاشيته الغريب العجيب لفت انتباه أهل باريس فصار الناس يمعنون النظر إليهم حتى أصحاب القصور خرجوا لمشاهدتهم "وقد صارت العيون ترمقنا وعلينا اللباس العربي الذي نحن نلبسه، عمامة صحارية وبشت وقميص، فكان الذي يرانا

لا بد أن يقف حتى يمتع نظره بمنظرنا العجيب الغريب، حتى إن بعضا كان ينظر إلينا من الغرف والبعض يخرجون من داخل القصور ينظرون إلينا، فماذا يقول القارئ إذا نزل صاحب العظمة بلباس الإفرنج في هذه المدينة باريس على ما فيها من الناس ذوي الأشكال المختلفة، أترى أحداً ينظر إلينا؟" (٢٤). وتصور الذات نظرتها للآخر بعين الاستغراب والدهشة والتقدير في الوقت نفسه "كلما مررنا على جمع من بني آدم مدوا إلينا أيديهم للسلام ومنهم من يقول لي: السلام، السلام، وكم مار لا أحد يسلم عليه أو يحتفل به" (٢٥) تمنيت أن أحداً من أبناء زنجبار المتجنسين بغير العرب ينظرون في هذا الوقت، فمئذ ووصولنا مارسيليا إلى وصولنا لندن، والمصورون يأتون إلينا من أهل الجرائد وغيرهم، ليأخذوا صورنا العجيبة الجميلة الغربية" (٢٦)

نظر كاتب الرحلة لذاته أنه غريب عاجز عن تكلم اللغة الإنجليزية وذلك حينما ضل طريقه إلى المنزل الذي كان يسكن فيه "فلما تيقنت أنني قد ضللت الطريق أخذني الرعب والخوف، وقلت في نفسي، وليس لي علم باللغة الإنجليزية، والآن أنا ضال عن المدينة الغربية..." (٢٧) ولم تصور الذات عجزها على عدم تكلم لغة الآخر في بلاده وأن صفة العجز محصورة في دائرة الذات بل إن هذه الصفة يمتلكها الآخر،



وهذا العجز شمل الآخر بصورة عكسية فإمام المسجد الذي يؤم بمسلي لندن لا يعرف العربية، وهنا تستوي ذات المغيري، والآخر في العجز اللغوي المشترك "وزرنا إمام المسجد الإسلامي ولا يعرف العربية" (٢٨).

انبهر بما لدى الآخر من الحضارة والتقدم المادي والعلمي والعمري وكافة المجالات فلم يترك معلماً أو قصراً أو حديقة وبستاناً وغيرها إلا أثارت دهشته وشدة إعجابها وسروره.

لكن على الرغم من استحسان الذات لأخلاق وعادات الآخر الاجتماعية إلا أنها استهجت عدم اكتراثه بالدين وخاصة الأديان الربانية وتصور الذات ذلك الإهمال وعدم الاهتمام عند الآخر "أما معاملات الأديان الربانية فمهملة جدا بين عموم أهل أوروبا على الرغم من كثرة الكنائس الشاهقة فإنك ترى الواهدين إليها شردمة قليلة،... أما الأعظم والأكابر والأغنياء وسائر الناس فهم غير مهتمين بأعمال الدين..." (٢٩). وهنا تقف الذات موقف اعتزاز بمعتمدها

الديني، فمهما بلغت الذات في إعجابها واستطابها لمنجزات الآخر وتمدنه وثقافته تظل تنظر لبعض الفروق بعين الحذر وتقف عند حدود تمنع الأمنيات من تجاوزها.

### الخلاصة :

رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا عام ١٩٢٧ - ١٩٦٠ تحتل الصدارة في الرحلات العمانية الدبلوماسية، فقد رحل السلطان خليفة ليشهد مناسبتين قوميتين في أوروبا بدعوى رسمية (تتويج الملك جورج السادس عام ١٩٢٦م وحضور حفل تتويج الملكة إليزابيث الثانية عام ١٩٥٢م).

إن رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا ١٩٢٧ تمثل بداية اتصال وتواصل العماني في زنجبار - التي هي امتداد للإمبراطورية العمانية- مع الآخر في القرن العشرين، وهي بوابة الوصف في الرحلات العمانية التي كانت وجهتها إلى أوروبا في القرن العشرين، حيث تحتل الرحلة السابق في أولويتها رحلة عمانية من زنجبار إلى أوروبا، وتعكس مدى تطور كتابة الرحالة العماني، وفي الوقت نفسه مثلت هذه الرحلة سجلاً أدبياً للتواصل مع الآخر وحدثاً تاريخياً في تطور العلاقات، ونمواً فكرياً معرفياً لجغرافية أمكنة الآخر، وقد تجلى ذلك في حديث الذات عن كل مدينة صادفتها وزارتها. ورحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا وفي فترات متقاربة تدل على قوة العلاقات الدبلوماسية بالآخر، وتعكس مدى رغبة الذات العمانية في التواصل مع الآخر الغربي والتأثر بمنجزاته وحضارته ومحاولة بلورة هذا التأثير بصورة واقعية ملموسة.

إن أغلب الرحلات العمانية التي كانت وجهتها إلى أوروبا والعالم الآخر، تجلت نظرتها بعين الإيجابية والرضا لما عند الآخر من تفوق وتقدم في مجالات العلم والعمران والآداب، لكن ما تفتخر به ذات العماني الدين واللغة التي تعزز بها، فكم أعوزتها اللغة الرسمية لبعض البلدان وأوقعتها في حيص بيص، مما جعل الذات تنظر نظرة إجلال للفتها الرسمية وتفتخر وتتمسك بها.

## الهوامش:

- (١) الزهراني، ناصر بن مسفر: أنيس المسافر وسلوة خاطر، ط٢، الرياض: مؤسسة الجريسي، ١٩٩٨م، ص٣.
- (٢) إن بداية التأريخ لمآجد عمان رحلة مالك بن فهم إليها وتوطيده الاستقرار العربي فيها بطرد الفرس منها.
- (٣) الفيلائي، سببت بن سعيد بن خميس: الشعر العماني في المهجر الأفريقي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها، ١٩٩٦م، ص٧.
- (٤) سعيد بن علي بن جمعة المغيري المسكري، ولد بعمان في فلج المشايخ بناحية جعلان سنة ١٣٠٠هـ، أرسله جده إلى الجزيرة الخضراء ١٣٢٣هـ، وقد تقلد عدة مناصب، وحصل على وسام الكوكب الدرّي من الدرجة الثانية، وفي عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٧م حظي بمرافقة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا لحضور تتويج الملك جورج السادس. انظر: المغيري، سعيد بن علي: جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، ط٤، سلطنة عمان: وزارة التراث والثقافة، ٢٠٠١م، ص٤٧.
- (٥) صالح بن علي بن مسلم الخلاسي(ت: أواخر ذي الحجة ١٣٦٢هـ / ديسمبر ١٩٤٣م) له ديوان لا يزال مخطوطاً. السعدي، فهد بن علي بن هاشم: معجم شعراء الإباضية (قسم المشرق) من القرن الأول الهجري إلى بداية القرن الخامس عشر الهجري ، ط١، سلطنة عمان:مكتبة الجيل الواعد، ٢٠٠٧م، ٢٢٣/١، ٢٢٤.
- (٦) البوسعيدي، حمد بن سيف بن محمد: قلائد الجمال في بعض أسماء بعض شعراء عمان، ط١، سلطنة عمان: وزارة التراث، ١٩٩٣م، ٢١٢/٢.
- (٧) وهبه، مجدي: الأدب المقارن، ط١، مكتبة لبنان- الشركة العالمية المصرية: لونغمان، ١٩٩١م، ص٢٢.
- (٨) المغيري، رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا ١٩٣٧- ١٩٦٠، تحقيق محمد علي الصليبي، ط١، سلطنة عمان: وزارة التراث والثقافة، ١٩٨٥، ص١٦.
- (٩) المرجع السابق نفسه، ص١٦.
- (١٠) المرجع السابق نفسه، ص٢٩.
- (١١) المرجع السابق نفسه، ص٢٨.
- (١٢) المرجع السابق نفسه ، ص٣١.
- (١٣) المرجع السابق نفسه ، ص٢٦.
- (١٤) المرجع السابق نفسه، ص٣٣.
- (١٥) المرجع السابق نفسه، ص١١٨.
- (١٦) المرجع السابق نفسه، ص٦٠.
- (١٧) المرجع السابق نفسه، ص١١٤.
- (١٨) انظر الخبر كاملاً في رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا، ص٥٦.
- (١٩) المرجع السابق نفسه، ص١١٥.
- (٢٠) منصور، أنيس: أعجب الرحلات في التاريخ، ط٧، القاهرة: نهضة مصر للطباعة، يونيو ٢٠٠٧م، ص٨.
- (٢١) العلوي، سعيد بن سعيد: أوروبا في مرآة الرحلة المغربية المعاصرة، ط١، أبوظبي: دار السويدية، ٢٠٠٦م، ص٢٢.
- (٢٢) المحروفي، محمد: "الجميل المتوحش: الآخر الأوروبي في منظور الذات، ملاحظ أولى على أدب الرحلة في شرق أفريقيا"، جريدة الوطن، ملحق أشرطة، ٢٠٠٨م. العدد (٩١٧٩)، ص١.

- (٢٣) المحروقي. "الجميل المتوحش"، ص٤.
- (٢٤) المغيري. رحلة السلطان خليفة بن حارب، ص ٣٠.
- (٢٥) العلوي، أوروبا في مرآة المرحلة، ص٢٣.
- (٢٦) المغيري. رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا، ص١٨.
- (٢٧) المرجع السابق نفسه، ص٥٢.
- (٢٨) المرجع السابق نفسه، ص٤٩.
- (٢٩) المرجع السابق نفسه، ص٦٨.
- (٣٠) المرجع السابق نفسه، ص٧٠.
- (٣١) المرجع السابق نفسه، ص٦٨.
- (٣٢) المرجع السابق نفسه، ص٧١.
- (٣٣) المرجع السابق نفسه، ص٦١.
- (٣٤) المرجع السابق نفسه، ص٣٠.
- (٣٥) المرجع السابق نفسه، ص٣٠.
- (٣٦) المرجع السابق نفسه، ص٤٩.
- (٣٧) المرجع السابق نفسه، ص٧٠.
- (٣٨) المرجع السابق نفسه، ص١١٧.
- (٣٩) المرجع السابق نفسه، ص٧٢.

## المصادر والمراجع:

- ١- الزهراني، ناصر بن مسفر: أنيس المسافر وسلوة خاطر، ط٢، الرياض: مؤسسة الجريسي، ١٩٩٨م.
- ٢- السعدي، فهد بن علي بن هاشل: معجم شعراء الإباضية (قسم المشرق) من القرن الأول الهجري إلى بداية القرن الخامس عشر الهجري، ط١، سلطنة عمان: مكتبة الجيل الواعد، ٢٠٠٧م، ١/٢٢٣: ٢٢٤.
- ٣- العلوي، سعيد بن سعيد: أوروبا في مرآة الرحلة المغربية المعاصرة، ط١، أبوظبي: دار السويدي، ٢٠٠٦م.
- ٤- الغيلاني، سبيت بن سعيد بن خميس، الشعر العماني في المهجر الأفريقي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها، ١٩٩٦م.
- ٥- المحروقي، محمد: "الجميل المتوحش: الآخر الأوروبي في منظور الذات، ملاحظ أولى على أدب الرحلة في شرق أفريقيا"، جريدة الوطن، ملحق أشرطة، العدد (٩١٧٩)، ٢٠٠٨.
- ٦- منصور، أنيس: أعجب الرحلات في التاريخ، ط٧، القاهرة: نهضة مصر للطباعة، يونيو ٢٠٠٧م.
- المغيري، سعيد بن علي:
- أ- جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، ط٤، سلطنة عمان: وزارة التراث والثقافة، ٢٠٠١م.
- ب- رحلة السلطان خليفة بن حارب إلى أوروبا ١٩٢٧-١٩٦٠، تحقيق محمد علي الصليبي، ط١، سلطنة عمان: وزارة التراث والثقافة، ١٩٨٥.
- ٧- وهبه، مجدي: الأدب المقارن، ط١، مكتبة لبنان- الشركة العالمية المصرية: لونجمان، ١٩٩١م.